مَوْسُوعَةُ فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الشَّرْح

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الشرح

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الشرح

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (٨) ﴾

تناولت سورة الشرح امتنان الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بما أنعم عليه عَزَّ وجل من نِعَم عظيمة وجليلة ومتعددة. فقال تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ سؤال تقريري بامتنان ربنا على رسوله صلى الله عليه وسلم بانشراح الصدر. فأثبت الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ولغيره بأنه جَلَّ جلاله قد فتح قلبه لإشراقة الهدى، وقبول الحق ولزومه، ومحبته له، وإزالة وإذهاب ما يضيق به الصدر، وجميع ما يصد عن الحق.

والانشراح هو انفتاح القلب على الحق بالسرور به. وأيضاً بسطه ورحابته بما يقذفه الله تعالى فيه من الهداية، ومحبتها والأنس بها ولها. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: نورناه، وجعلناه فسيحاً، رحيباً واسعاً، كقوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ وكما شرح الله تعالى صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً، سمحاً، سهلاً، لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق[1] وبالتالي لن يستوي من وسَّع الله تعالى له صدره وشرحه لقبول نوره، فجعله مستعداً لاستيعاب وقبول الحق بهذا الانشراح العظيم الذي مكنه ربه منه. وقد ورد الامتنان بأسلوب السؤال التقريري، الذي يقرر به سبحانه وتعالى عظيم امتنانه على رسوله صلى الله عليه وسلم، ويلفت به كذلك لغيره حقيقة ما يشاهده على رسوله صلى الله عليه وسلم من تعامله وأخلاقه الكريمة التي تدل على انشراح صدره صلى الله عليه وسلم، وأنها آية إعجاز، تشهد له بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا دلالة عظيمة على منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم عند ربه، وعظيم عنايته ومحبته له جَلَّ في علاه. وقد أثبتت ودلت سيرته صلى الله عليه وسلم على حقيقة هذا الامتنان العظيم، فقد اتصف بالصبر ومكارم الأخلاق، ومحبته للخير، ودفع الشر والظلم، والحلم في معالجة الأمور، وإقبال أصحابه عليه محبة له صلى الله عليه وسلم. حتى أنه ابتسم للرجل الذي جذبه مع ردائه صلى الله عليه وسلم، وأثر في عاتقه. حيث ورد

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٥٦٠)

في الحديث، عن أنس رضي الله عنه، قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت بها حاشية الْبُرد من شدة جبذته. ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء[١] فياله من انشراح صدر، حيث يقابل به مَن استثاره بشدة التعامل بتلك الابتسامة وبذلك العطاء. مما يبين كيف أعدَّ اللهُ تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم لهذه الرسالة، ليتمكن منها بأحسن ما يكون التمكن. وبما يعلم المؤمن كيف يتعامل مع غيره، بالحلم ومكارم الأخلاق.

مما يفيد أن انشراح الصدر منحة من الله تعالى، فليطلبه المسلم من الله عَزَّ وجل بالدعاء والطاعة والمتابعة في أداء حقوق الله تعالى، فإن من أراد أن يوفقه الله تعالى لانشراح الصدر وقبول الحق، ومحبة الطاعة، والأنس بها. فليلزم طاعة ربه عَزَّ وجل، وكثرة سؤال ذلك. ليفتح له ربه تبارك وتعالى قلبه ويوسعه للتوحيد والإيمان، ومحاسن الأخلاق ومكارمها، وحب ومحبة طاعته جَلَّ جلاله، وبغض وكره معصيته عَزَّ في علاه.

مما يدل على أن القلب وعاء عظيم إذا بارك الله فيه فإنه يجعله يتسع لنوره وإشراقته بكل محبة ووداد، كما يدل على عظيم نور الله عَزَّ وجل، الذي تستوعبه القلوب المتسعة، التي وسعها الله تبارك وتعالى بفضله ومَنّه ولطفه وإحسانه. وبما يفيد أن القلوب المتوغلة في الكفر، والمتجانفة عن الإسلام لا تتسع له، لسعة الإيمان ونوره البهيج الواسع، وأن قلب الكافر المصر على كفره ضيق شديد الضيق، فقد يبلغ به الضيق أنه لا يستطيع أن يتقبل ويقبل الإيمان ويُدْخلَهُ في قلبه، وكأنما هو يصَّعد في السماء من شدة ما يصارعه، كما قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ وكما قال تعالى في سورة الزمر ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ فإن من شدة فراره عن الإيمان كمن طُلِب منه الصعود إلى السماء وما هو بقادر. وفي هذا بيان وتحرير للحالة النفسية التي يمنحها الله تعالى للمؤمنين الطائعين، المواظبين على طاعته وسؤاله جَلَّ جلاله. اللهم اشرح لنا صدورنا ويسر لنا أمورنا بفضلك ومَنَّكَ يا كريم.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى عطاء عظيم آخر من الله العزيز الحكيم لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ أي: وحططنا عنك ذنبك بالمغفرة، كما قال جَلَّ جلاله في

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٥٨٠٩) مسلم، صحيح مسلم، برقم (١٠٥٧)

سورة الفتح ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ وسماه وزراً: لثقله على الإنسان. ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أي: حططنا عنك إثمك الذي سلف في الجاهلية. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقتادة والضحاك والفراء وابن قتيبة(١) وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية التي كنت فيها(٢) وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: ويكون المراد بالذنب بعد الرسالة: ترك ما هو أولى، وسُمّي ذنباً في حقه لجلالة قدره، وإن لم يكن ذنباً في حق غيره(٣) وقال المحاسبي رحمه الله تعالى: وإنما وُصِفَت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل، مع كونها مغفورة، لشدة اهتمامهم بها، وندمهم منها، وتحسرهم عليها(٤) فقد عامل الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في شأن المغفرة على أنه بشر، بالرغم من حرصه صلى الله عليه وسلم على ألا يقع في ذنب، لأنه مهما عمل من الطاعات فيشعر بالتقصير في حق الله تعالى. ليتبين للناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر، وأنه مع حرصه ومعرفته لربه، ومعرفة الله تعالى به، فقد غفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لمنزلته ومكانته الرفيعة عند الله عَزَّ وجل. مما يُحَفِّز المسلم على سؤال الله تعالى المغفرة، فإنه هو الغفور الرحيم. مما يُحَفِّز المسلم على سؤال الله تعالى المغفرة، فإنه هو الغفور الرحيم.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى عن عظيم ما حطه وأسقطه ومحاه عن رسوله صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي: فإن ربك هو الذي رفع عنك أحمال وأثقال الرسالة التي أثقلتك. فلقد رفعنا ما أثقل ظهرك من أعباء تكاليف الرسالة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أثقل ظهرك(٥) وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: أثقلك حمله(٦) مما يبين أنه عليه الصلاة والسلام كان يعاني حملاً ثقيلاً من تكاليف الرسالة، لِمَا يُواجه من أعدائه الحاسدين والمستكبرين، بما ظهر ذلك في سيرته صلى الله عليه وسلم. فأعانه الله تعالى على ذلك. مما يبين أنه مهما ثقلت أعباء الإنسان في شيء، ومن أي نوع، فإنه لا يخففها عنه إلا الله تعالى، فليلجأ لربه عَزَّ وجل بالطاعة والتضرع، فإنه خير معين، وخير سند جَلَّ في علاه.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧١/٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩٢/٢٤)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٤٥/٥)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٢/٢٠)

(٥) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩٣/٢٤)

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٦٠/٤)

ومن دقائق البيان أن أسند الله عَزَّ وجل إنقاض الظهر له تبارك وتعالى ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ فربك هو الذي رفع عنك ذلك الحمل الثقيل من أعباء ما كلفك به، ومما واجهك به قومك وغيرهم من المبغضين للدين. ليتبين أن المخفف للأعباء هو الله تعالى، مهما كانت ثقيلة الأداء والحمل. ومن دقائق البيان كذلك أنه في نفس الوقت أسند سبحانه وتعالى الإنقاض والرفع من حيث التحمل إلى الظهر. لأن الظهر هو القوة للبدن، الذي يحمل البدن ويقوم عليه. فإذا ضعف الظهر احدودب وتقوس البدن. وبالتالي أصبح ثقل الأمور تُسند إلى الظهر. كناية عن قوة تحمله. فهو بلاغة وجزالة في البيان. لتستوفي ثلاث كلمات جميع المراد.

ومن مزيد العناية والامتنان من الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم قوله عَزَّ وجل ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ أي: أعلينا مقامك، فأصبح ذكرك عالياً بكمال الوصف بين العالمين. قال السعدي رحمه الله تعالى: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي، الذي لم يصل إليه أحد من الخلق[1] فقد رفع الله تعالى ذكره صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة، وبمنزلته العالية العظيمة في الآخرة، ورزقه الشفاعة يوم القيامة. وإعلان اسمه ورسالته صلى الله عليه وسلم في كل أذان على رؤوس المآذن، وأيضاً مقرون بشهادة ألا إله إلا الله. وكذلك في إقامة الصلاة، وفي التشهد، وفي المنابر يوم الجمعة، وفي الْخُطَب، وفي كل كلام ذا بال وأهمية، بل وتُختم به المجالس والخطابات والْخُطَب، وأن الإيمان به صلى الله عليه وسلم ركن وشرط لصحة الإسلام والإيمان، وورود ذكره صلى الله عليه وسلم فيما سبق من الكتب المنزلة من الله تعالى على المرسلين من قبل، وكذلك محبة المؤمنين له، بكثرة ذكرهم له صلى الله عليه وسلم، وخاصة ليلة ويوم الجمعة. اللهم صل وسلم وبارك على نبينا محمد.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم تدبيره حال العسر. فقال عَزَّ وجل ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ أي: مع كل عسر وصعوبة تحدث، فإنه يصاحبه ويحتويه يُسر. فإنه مع الضيق الفرج. مما يستدعي الصبر، والمثابرة في كل شأن يواجه الرسول عليه الصلاة والسلام. مما يعطي قوة التفاؤل وقوة الأمل عند المؤمن، وأن عليه أن يتعامل مع كل عسر على أن له وجه آخر من اليسر، وأن له مصاحبة أخرى من التيسير، مما يستدعي الصبر، والمثابرة في كل شأن يواجه المؤمن. لأن من مميزات هذه الآية الكريمة أنها وردت عامة، لتشمل النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه عليه الصلاة والسلام إلى يوم القيامة، وبالتالي لا يُثنيك أيها المؤمن أي عسر يُقابلك عن تحقيق ما كلفك الله تعالى به، أو تسعى في أن تحققه من أمور الحياة. مما يُعَلِّم المؤمن بأن لا يجعل من الصعوبات عوائق تُوقِفُه وتُثنيه عن مسيرته، وعن مراده من الخير في كل أداء ومراد يريد تحقيقه، بل يواجه ذلك بالصبر والاستمرار حتى يأتيه اليسر من الله تعالى.

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٣١/٥)

ومن فوائد ذلك: أن الله تعالى قد جعل العسر اختبار للمؤمن، فهل يصبر، ويستمر؟ أو ييأس فينثني عن مراده من الخير فلا يحصل عليه. وكذلك يُعلم المؤمن بأن يَركَن إلى ربه بالدعاء والصبر، وكذلك من فوائد ذلك حتى يشعر المؤمن بقيمة ما حصل عليه من اليسر بعد العسر الذي واجهه حيال تحقيق مراده، وأنه كان بتوفيق الله تعالى له.

ثم يؤكد تبارك وتعالى ذلك التقرير لليسر المصاحب للعسر بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ فهذا تأكيد من الله تعالى بأن مع العسر يُسرٌ مصاحب له. وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لن يغلب عسر يسرين)[١] لأن العسر المذكور في الآية الكريمة يعتبر عسر واحد، لأنه ورد مرتين بأل التعريف ﴿ ٱلْعُسْرِ ﴾ فدل على أنه واحد. بينما ورد اليسر بصيغة النكرة، من غير أل التعريف ﴿ يُسْرًا ﴾ فدل تكراره على أنه يسرين. فأفاد التعظيم والتفخيم والتأكيد.

ولذلك فإنها قاعدة يواجه بها المؤمن المصاعب، فكلما واجهته صعوبة وتعسر عليه أمر تذكر قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ فيزداد صبراً وتحملاً ومثابرة أمام المصاعب، ويعضد ذلك بسؤال الله تعالى، والتوكل عليه، فهو خير معين جَلَّ في علاه. فإن تعسر شيء من مراده قال ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ وإن واجهته صعوبة في أمر يتوقاه، أو أمر يطلبه قال ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ وإن رأى شخصاً يواجه عُسراً وعظه وذَكَّره بقوله تعالى ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ فإنها قاعدة عظيمة في مواجهة المصاعب.

ثم يُوجِّهُ الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى قاعدة تُوضح منهج التعاقب في العمل والطاعة، وأمور الحياة المختلفة. فقال الله عَزَّ وجل ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ فإذا انتهيت من أعمال وأشغال الدنيا فاجتهد في العبادة. ثم عضد ذلك بالإخلاص، فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ وإلى ربك وحده لا شريك له فارغب في طلب ما عنده من الجنة بما تقوم به من العبادة والإخلاص فيها له وحده لا شريك له، بما يفيد التحذير من الرياء، والابتعاد عنه في جميع شؤون المؤمن، وخاصة العبادة. فأخلصها لله تعالى وحده لا شريك له.

---

(١) الحاكم، المستدرك (٣٩٥٠)

وهي تفيد بيان التتابع، وأهمية العبادة، وما يتطلب لها من التفرغ ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أي: فَرَّغت نفسك من عملك من أجل العبادة ﴿ فَٱنصَبۡ ﴾ أي: فقم بأدائها على أكمل وجه. مما يبين أهمية العبادة والتفرغ لها، والإخلاص فيها لله تعالى.

ومن دقائق البيان الكريم أن جعل الله سبحانه وتعالى المتابعة بالانتصاب بعد الفراغ ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبۡ ﴾ لأن الفراغ لا يكون إلا بعد انشغال يلحقه توقف. وكذلك من دقائق البيان الكريم أن أورد تبارك وتعالى أمور الدنيا بالفراغ منها، من غير أن يُعين المفروغ منه، ولم يذكره ويحدده تخصيصاً ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبۡ ﴾ فإذا فرغت منها، أي: من أشغالك من غير تخصيص، لتستوعب جميع أنواع الأشغال، من غير تحديد لها. كما أفادت دلالة ﴿ فَإِذَا ﴾ شرط الفراغ للفعل ﴿ فَٱنصَبۡ ﴾ فكان شرطاً لما بعده. وفي هذا دقة بيانية، وبلاغية في السياق إلى أقصى غايته. فمع قلة الألفاظ استوعبت شأناً ودلالات عظيمة. حيث أفادت كذلك الترتيب، وأن هذا الدين لا يقطع الإنسان عن العمل، بل يحثه على ذلك، لأن أمور الحياة قائمة على العمل. كما قدم سبحانه وتعالى ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ على ﴿ فَٱنصَبۡ ﴾ لبيان الاهتمام، وحتى يتفرغ الذهن للعبادة العامة. وأما العبادات المخصوصة بوقت محدد ومحدود فيفرغ نفسه لها ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ فإذا فَرَّغت نفسك لها ﴿ فَٱنصَبۡ ﴾ لتقام في وقتها: كالصلاة. مما يبين أهمية العبادة والتفرغ لها، والإخلاص فيها لله تعالى. كما أظهر البيان العظيم والتوجيه الكريم أهمية التنظيم في التتابع الذي لا يحصل به الخلل في العبادة، ولا الخلل بمتطلبات الحياة.

وقد أفادت دلالة ﴿ فَٱنصَبۡ ﴾ القيام والاهتمام مع قوة الاجتهاد، والتنوع فيما ينصب المؤمن نفسه فيه. ومما يفيد المتابعة في العمل والعبادة وشكر الله تعالى، والدعاء والسؤال. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها، فانصب في العبادة، وقم إليها نشيطاً، فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة. ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم (لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافعه الأخبثان)[١] وقوله صلى الله عليه وسلم (إذا أقيمت الصلاة، وحضر العشاء، فابدؤوا بالعشاء)[٢] قال مجاهد رحمه الله تعالى: إذا فرغت من أمر الدنيا، فقمت إلى الصلاة فانصب لربك، وفي رواية عنه: إذا قمت إلى الصلاة فانصب

(١) مسلم، صحيح مسلم، برقم(٥٦٠)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٥٤٦٥) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (٥٥٨)

في حاجتك. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل[١] وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فإذا فرغت مما فُرِض عليك من الصلاة فسل الله، وارغب إليه، وانصب له[٢] مما يبين سعة دلالتها التي تحث على الترتيب، وتعظيم أمر العبادة، والإخلاص لله تعالى بالرغبة فيما عنده عَزَّ وجل، وكذلك تعظيم أمر الاشتغال بمطالب الحياة على تنوعها، لأنها مما لا يستقيم أمور الإنسان وراحة باله إلا بقضائها. فنحمد الله تعالى على هذا الإنعام من البيان الذي ينظم حياة المؤمن، والموازنة بين مطالب أشغال الحياة العامة، ومتطلبات العبادة، مع الركون والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الشرح. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٦٢/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩٧/٢٤)